

الإفخارستيا

جسد المسيح الواحد

من رسائل القديس

الأب صفرونيوس القصيرة

من صفرونيوس إلى الإخوة المبتدئين:

١– سلامُ ربنا يسوع المسيح، محب البشر الذي ارتضى أن يكون لنا ميراثاً، وأن يصالحنا في جسم بشريته، فخلقَ في نفسه إنساناً جديداً واحداً صنع به السلام مع الآب (أف ٢: ١٥)، وهو أقامنا نحن في جسده وجعلنا أهل بيته (أف ٢: ٢٢) صائراً هو "الرأس الذي منه ينمو كل الجسد" (كو ٢: ١٩) ثابتاً بقوة وبنيان الروح القدس.

سؤالٌ هام:

٢– سؤالكم عن جسد ربنا يسوع المسيح في السر المجيد هو سؤال دقيق وهام؛ لأنه يكشف عن رغبةٍ مقدَّسةٍ في إدراك الأسرار، ولكن علينا أن نتعلَّم الروحانيات من الروحانيات؛ لأن تعلُّم الروحانيات من الجسدانيات هو ضرر وعطب خطير.

سِرٌّ سمائيٌّ للذين تعلَّموا الأسرار:

٣– من جهة تناولنا من جسد الرب، فنحن نأخذه كله، المسيح الواحد الرب الواحد الذي لا ينقسم. هذا سِرٌّ سمائيٌّ يدركه الذي تعلَّموا الأسرار وخفاياها من الشيوخ، وهؤلاء علَّمونا أن عمانوئيل إلهنا واحدٌ هو من بعد الاتحاد، وغير منقسمٍ إلى طبيعتين. هكذا نعرف أنه منذ حلول أقنوم الكلمة الابن الوحيد في أحشاء العذراء القديسة مريم، اتحد بغير افتراقٍ بالناسوت، فولدت الله الكلمة المتجسد، وهذا هو السبب الذي لأجله دُعِيَتْ والدة الإله الثيؤتوكوس.

الاتحاد الفائق للاهوت والناسوت في المسيح:

٤– أمَا وأن ربنا يسوع المسيح قد صعد بجسده وجلس عن يمين الآب في

مجده، فهذا هو اعتقاد كل الأرثوذكسيين. وهو في مجده، المسيح الواحد، وأيضاً في السر المجيد هو المسيح الواحد غير المنقسم إلى لاهوت وناسوت. وبسبب هذا الاتحاد الفائق الإدراك هو كائنٌ على مذبح الكنيسة الجامعة بجسده ودمه في كل ليتورجية، ونحن نفهم هذا السر على قدر إدراكنا باعتقادٍ حَسَنٍ وصحيحٍ بسر الاتحاد بين اللاهوت والناسوت. هذا الاتحاد المجيد الفائق صار فيه الناسوت واحداً بلا افتراق عن لاهوت وأُقنوم الكلمة، وهذا الاتحاد هو الذي جعل كل ما يصدر عن الناسوت أو اللاهوت هو فعلٌ واحدٌ إلهيٌّ إنسانيٌّ للمسيح الواحد. فهو وحده الواحد الذي لمَّا لمست نازفةُ الدمِ ثوبَه شُفِيَتْ، وهو الواحد الذي وَضَعَ الطينَ على عيني المولود أعمى فأبصَرَ. فإذا كان المسيحُ الواحدُ لا ينقسم ولا تفترق طبيعته من بعد الاتحاد، بل له فعلٌ واحدٌ، فكيف يحدث افتراقٌ في السر المجيد؟ هو بذاته حاضرٌ بناسوته ولاهوته على مذبح الكنيسة الجامعة، وينقل إلينا حياته الفائقة؛ لأنه سبق وملأ المسكونةَ من مجد أُلوهيته. أمَّا الآن، فهو يملأ الكنيسة جسده بنعمةٍ خاصةٍ وهبةٍ فائقةٍ، هي هبةُ الخلاص والشركة في الطبيعة الإلهية. المسيحُ واحدٌ له فعلٌ واحدٌ لا يَهب شيئاً بالناسوت دون اللاهوت أو باللاهوت دون الناسوت، وهذا ما يحدث في كل الأسرار التي تفوق إدراك المعرفة التي تتكون فينا بالحواس، لا سيما العينين.

تبادُلُ الصِّفات:

٥- وأمَّا عن ناسوت المسيح الكائن سراً على المذبح في السرِّ المجيد، فاعلم أن هذا هو الحق، ليس لأن الناسوت قد تحوَّل إلى لاهوت كقول أوطاخي، وإنما بفضل الاتحاد، صار ما للاهوت خاصاً بالناسوت مثل عدم الفساد والقيامة وغلبة الموت، وصار ما للناسوت خاصاً باللاهوت، وهكذا تم تبادُل الصفات بسبب الاتحاد، مع بقاء اللاهوت والناسوت دون اختلاط أو امتزاج أو تغيير كقول الآباء. وبسبب الاتحاد قيل إن دم ربنا هو دمُ الله (أعمال ٢٠: ٢٨)، وبالاتحاد أيضاً صار اللاهوتُ واهباً الشفاء

والقيامة لكل مَن يلمس جسده أو يشترك في السرِّ المبارَك. ومتى اجتمعنا نحن في الكنائس من أجل الصعيدة الناطقة الروحانية غير الدموية، حياة الابن الوحيد ومجده، ومن بعد استدعاء الروح القدس، نشترك في لاهوت وناسوت الابن الوحيد. ونحن الذين قَبِلنا الروحَ القدس وبه خُتمنا في المسحة المقدسة في المعمودية، قد أنار الروحُ القدس بصائرنا وغَرَسَ فينا حياة المسيح الغالبة الموت. هو بذاته المسيح الواحد ينقل إلينا هذه الحياة السرِّية في السرِّ المجيد، وهذا لا يكون غرساً لحياة الرب فينا من جديد، بل لأننا في المعمودية ننال هذه البذرة، نعود ونلتصق سِرِّياً بالرب، ويكون هذا على مثال سَرَيَان الحياة من الرأس إلى الأعضاء في الجسد الواحد. ونحن نستدعي الروح القدس؛ لأن المسيح ربنا كائنٌ في وسطنا، ليس بشكلٍ جسداني منظور كما كان في أيام جسده قبل القيامة، بل كائنٌ بالروح القدس بشكلٍ غير مرئي يعلنه لنا الروح القدس، فيغرس محبته (المسيح) في قلوبنا.

الإدراك بالروح القدس:

٦– وهكذا، هو حقاً وبكل يقين، بجسده ودمه الحقيقي. وبقولنا: الحقيقي، نحن نعني المُمجَّد والقائم من الأموات، ولا نعني العظام واللحم فقط، وإنما ما صار في هذه العظام واللحم من مجدٍ وحياةٍ حقيقيةٍ، نزَعَت الموت والفساد عن الطبيعة البشرية. فالروح القدس غير الهيولي لا يهب لنا جسداً خيالياً كزعم الهراطقة (الدوسيتيين)، وإنما يعطي لنا جسداً حقيقياً ممجَّداً بالاتحاد، هو ذاته الذي أخذه من العذراء مريم ورَفَعَه إلى مجده. ولمَّا صَعِدَ إلى مجده لزم أن نقبله بالروح القدس السمائي غير المجسَّم بأي نوعٍ أو شَبَهٍ، حتى ترتفع عقولنا وندرك أن ما يمنحه الروح يُفهم بشكلٍ روحيٍّ غير جسداني.

المذبحُ الواحد:

٧– ومذبحُ الكنيسة الواحدة الجامعة هو مذبحٌ واحدٌ مهما تعدَّد؛ لأنه كما

أن المعمودية واحدة، هكذا المذبحُ واحدٌ. والذين يتممون المعمودية في كل أرجاء المسكونة، إنما يتممون معموديةً واحدةً بإيمانٍ واحدٍ وربٍّ واحدٍ. قوةٌ واحدةٌ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، ونعمةٌ ثابتةٌ لا تتغير مهما تغيَّر الزمان والمكان؛ لأنها معمودية الرب الواحد في جسده الواحد الكنيسة الجامعة. وهكذا صعيدةٌ واحدةٌ لربٍّ واحدٍ لا تتغير في زمانٍ أو مكانٍ.

عطيةُ التبني:

٨- وكما أن الذين يغطسون في مياه المعمودية ينالون كلَّ واحدٍ قوةَ موتِ المسيح وقيامته حسب عمله السِّرِّي في الإنسان، وهكذا، إذ يصير لنا موتُ المسيح وقيامته؛ نتَّحدُ بالربِّ آدم الثاني، ونُولد ميلاداً جديداً يجعلنا آنيةً مقدسةً وخرافاً في قطيع الحمل ابن الله.

وبتغيير الطبيعة الإنسانية التي فينا من آدم القديم إلى آدم الجديد، يتمُّ غرسُ حياةَ البنوةِ فينا، ولا نعود عبيداً للفساد الذي يغرس الانقسامَ فينا والموت الذي يجعل كلَّ أخٍ عاجزاً عن رؤية أخيه. وبالمعمودية ننتقل إلى الحياة الجديدة التي ترفعنا فوق فساد الطبيعة القديمة وتحوّلنا إلى هيكل الله الحي. وكما أن المعموديةَ واحدةٌ، كذلك المذبحُ الواحد، فالمعمودية واحدة؛ لأنها كائنةٌ في الكنيسة الواحدة. إنها هبة الميلاد الثاني وعطية الروح القدس التي لا تتغير. ونحن نُعمَّد؛ لأن هذه العطية كائنةٌ في الكنيسة، وهي ليست كائنةً في موضع جرن المعمودية، بل كائنةٌ من قِبَل اتحاد اللاهوت بالناسوت في ربنا يسوع المسيح. وفي سِرِّ زواجه السِّرِّي بالكنيسة، مَنَحَ لها أن تأخذ في أي وقت وفي أي مكان من حياته الإلهية الإنسانية؛ لكي تُعمِّد الآتين إليها، وتمنحهم عطية التبني وهبة حياة عدم الموت، لذلك عينه، فإن الرب الذي يعطي سِرَّ التبني في المعمودية هو بذاته يقترن بنا بسرِّ صليبه، أي القضاء على الإنسان العتيق بتكوين الإنسان الجديد في كل الذي يعتمدون باسمه للآب وبالروح القدس. وهكذا

أيضاً على مذبح الكنيسة، يهب ذاته حيَّاً قائماً من الأموات، وهي هبة اللاهوت لنـــا في جسد ربنا يسوع المسيح.

الاتحادُ في التوزيع:

٩– ولأنه اقترن بكل مؤمنٍ في سرِّ المعمودية، فإنه يأتي إلينا مقترنـــا بكـــل الجماعة مؤلِّفاً إياها في جسده. وعندما نتناوله، فليس هو الذي ينقسم بالتوزيع، وإنما نحن الذين نتَّحد به في توزيع جسده ودمه. لقد تمجَّد على الصليب وبالروح القـــدس "لكي يجمع أولاد الله المتفرقين إلى واحد" (يوحنـــا ١١: ٥٢)، وهو لذلك، لا ينقســـم في التوزيع، وإنما بالتوزيع، يصير المتفرقون جسدَهُ المقدس. هو لا يصير ما نحن، وإنما نحن نصير ما هو. ولو صار هو ما نحن لصار في فساد الموت. وإنما نحن نصير ما هـــو؛ لأن قيامتَهُ تغلبُ فسادنا، وقوتَه تحوِّلُ ضعفنا إلى عدم الموت، وهو الذي ســـبق وأخبرنـــا بذلك مؤكِّداً لنا أن أكل جسده المقدس وشُرب كأس عهد دمه، إنمـــا تهبنـــا الحيـــاة الأبدية.

الروح القدس هو المذبح الواحد:

١٠– وإن كان للكنيسة الجامعة الرسولية مذابح عِدة في كل المســـكونة، إلاَّ أن المذبح واحدٌ، أي الروح القدس الذي يقدَّم عليه جسد ودم ربنا يسوع المســـيح، فالمسيح لا يوضع على عدة مذابح متفرقة، وإنما يجمع المتفرقين إلى واحد. هـــذا سِـــرٌّ عظيم لا يمكن أن يفهمه العقل؛ لأن الإنسان ينتقل من مكانٍ إلى مكان، أمَّا الرب فهو يرسِل –بالروح القدس– حياته الإلهية الإنسانية من حضن الآب، وهو يفعـــل ذلـــك بمحبته الشديدة، المحبة تُجمِّع، أمَّا الخطية والعداوة، فهي تقسِّم، المحبة تجعل حتى الفرقاء واحداً، أمَّا أعمال الجسد، فهي تفرِّق الأحباء. وإذا كان الرسول قد قال إن "من يزرع للجسد يحصد ثمار ما زرعه أي العداوة"، فهو يؤكد علينا أن السر المجيد ليس عمـــلاً

جسدانياً، ولا هو حصاد الثمر الجسداني الذي يُزرع حسب الجسد، وإنما هو قوة حياة "الرب من السماء" الذي جعل جسده بالاتحاد "مأكلٌ حقٌّ"، وأهَّلنا لأن نشترك في جسده السمائي من بعد قيامته وصعوده إلى السموات قائلاً: "فإن رأيتم ابن الإنسان صاعداً إلى حيث كان أولاً"، فأكَّد بذلك أنه سوف يمنح جسده بعد صعوده إلى الكنيسة الجامعة لكي يجمع الكل، ويصير الرأس. هو الذي تنمو منه الأعضاء. هو فوق لكي يجمع الأرضيين في السمائيات ويجعلهم معه واحداً، لا لكي يصبح أرضياً ينقسم ويوزَّع، ومن يأكل الإفخارستيا، فهو يعرف أن الرب صار "نصيبه وميراثه"، فهو يأخذه كله.

الرب والكنيسة:

١١- من أجل ذلك، استلمنا من الشيوخ الذي سبقونا في الإيمان أنه كما أن المعمودية واحدة والرب واحد والكنيسة واحدة، كذلك المذبح واحد والذبيحة واحدة والرب رأسٌ واحد لجسدٍ واحد هو الكنيسة الواحدة. هذا سِرٌّ لا يخضع لتصورات العقول الغارقة في الأرضيات، وإنما تتقبله العقول المؤمنة بالسماويات، مدركةً كيفية قياس الهبة على غيرها من الهبات والعطايا، وكيف ينضبط الفكر والإدراك ويتقبل الأمور السماوية. والهبة الفائقة التي تجمع كل الأسرار، هي زواج الرب بالكنيسة؛ لأنه من هذا الاقتران تنتُج الأسرار: سر الحميم المعمودية، والتناول. على هذا المثال (الرب والكنيسة)، يأخذ المؤمنون لأنفسهم زوجات، ولمَّا كان هذا السر عظيم كقول بولس الرسول، فإن الذي يفهم الزيجة السماوية يتعلَّم من النظر إليها أن الرب صار جسداً واحداً مع الكنيسة بلا افتراق. هذا هو السر الذي رتَّب الآب اجتماعه قبل كل الدهور، وبسبب هذه الوحدة يعطي الرب جسده للعروس الكنيسة، فهي زوجة واحدة لرجلٍ واحد.

لغة الأسرار:

١٢– بسبب هذه الوحدة، صارت الكنيسة واحدة في كل المسكونة، وتفرقها في كل جهات الأرض لا ينزع عنها "سر وحدها"، وهذا هو الذي يجعل لها مذبحاً واحداً قائماً في كل جهات الأرض، فالمسيح الواحد على مذبحٍ واحدٍ يُعطى لعروس واحدة الكنيسة الجامعة.

لذلك تعلَّم يا صديقي العزيز لغة الأسرار، ولا تخلط لغة الأسرار السماوية بلغة الأرضيات؛ لأن هذا يُعثرك ويُعثر الأخوة، ويسبب الارتباك لكثيرين.

صفرونيوس يرسل السلام في المسيح ربنا إله السلام رأس الكنيسة الواحدة الذي له المجد مع الآب والروح القدس في وحدانية الجوهر.

ملاحظات على الرسالة

– لعل أهم ملاحظة من الناحية الطقسية هي اعتبار الروح القدس هو المذبح الواحد في الكنيسة. هذه العبارة لا تختلف عن العبارة التي وردت في قوانين البابا أثناسيوس الرسولي[١]: "كذلك المذبح إذا كان من خشب أو حجارة أو ذهب أو فضة، فإنه ليس ميِّتاً مثل طبعه الأول، بل هو حيٌّ إلى الأبد، وهو روح الحي قائماً عليه. المذبح المنصوب قدام الرب في السموات هو الروح القدس الناطق الذي يتكلم ويعرف من هو مجتهد في خدمته على الأرض" (قانون ٧ ص ١٢ طبعة *Crum*)[٢].

---

(١) علماء الغرب يشكون في صحة انتساب قوانين أثناسيوس إلى القديس أثناسيوس الرسولي، ولكن تبقى شهادة المخطوطات كما هي لأن أدوات النقد الأوربي لها نظرة تاريخية ضيقة، ويمكن للقارئ أن يراجع دراسة الأب أثناسيوس المقاري بعنوان قوانين البابا أثناسيوس، حيث يقدم آراء علماء الغرب في صحة القوانين.

(٢) في طقس تقديس المذبح تقول الكنيسة: "مذبحاً عقلياً للذبيحة الغير الدموية الناطقة؛ لأن هذا هو "إرادة الابن له المجد" (عب ١٠: ١٠) الذي به نلنا التقديس".

- المقارنة بين المذبح الواحد والمعمودية الواحدة هو أمر هام جداً يفتح لنا مجالاً للتفكير الصحيح في معنى الإفخارستيا، وهي وحدتها كوحدة المعمودية.

- تفسير الإفخارستيا على أساس المبدأ اللاهوتي المعروف وهو *Communicatio* أو تبادُل الصفات *idiomatum* وعلى أساس مبدأ الفعل الواحد للمسيح *Theandric*.

+ + +